تموسيدا مدينة رومانية

على بعد عشرة كيلومترات جوا من مدينة القنيطرة يقع ضريح الولى سيدى على بن أحمد بالضفة اليسرى لنهر سبو وبجانبه تقوم انقاض المدينة الرومانية القديمة تموسيدا واذا كانت المعالم الطبيعية قد تغيرت منذ ما قبل الميلاد فان مسيل الوادى ما زال فى مجراه لم يحد عن مصبه الحالى ويظهر أن سور المدينة كان محاذيا للنهر لان قنوات مياه المستحمات البخارية تنتهى بمجرد خروجها من هذه الحمامات .

وكانت البقعة آمنة تحصر جوانبها قلعة مجهزة بمطامير وبئر وان كانت هنالك رواية تقول بأن هذه القلعة حديثة أقيمت فى القرن الماضى لصد غارات أهل زمور على أراضى بنى حسن ومهما يكن فان هذه السهول كانت مرعى خصبا للسائمة وربما حقلا صالحا للزراعة بالاضافة الى غابة المعمورة الثرية بحطبها ومواردها الاجمية وكذلك الطين الخزفى وحجر المسن grés والماء القراح الذى تفيض به منابع النهر ولعل هذا يفسر لنا لما ذا لم يعثر لحد الآن داخل المدينة الرومانية على آبار ولا على بقايا معابر لنقل الماء .

والنهر حافل بأسماك تمد السكان بمورد غذائى هام طوال الفصول وقد عثر فى الحفريات بهذه المدينة وكذلك فى مدينة باناسا على عدد كبير من الشخوص ومجازف الصيد filets وقنديل يمثل صيادا بقصبته وقد تجلت بقايا معمل للتصبير تدل على أن السمك المملح كان من المواد المصبرة كما أن حبائل واسعة × كانت تستخدم لاقتناص الاسماك العابرة ومع ذلك فانه يحق لنا ان نتساءل لما ذا اسست هذه المعامل بعيدا عن البحر وان كنا نعلم أن أسماك النهر ربما كانت كافية لامداد معامل التصبير خلال السنة .

فالظاهر أن عرض البحر كان يشكل ينبوعا هاما لانواع من الاسماك لا توجد فى النهر ، وهذه العوامل قد ساعدت على قيام دسكرة على المرتفعات القريبة من الوادى وقد تساءل علماء الآثار كيف تم التفكير فى بناء حاضرة رومانية ربما لم تكن فى البداية سوى «مدينة-قنطرة» على نسق مدينة القنيطرة الحالية اذ أول شىء كشفه الاستاذ تيسو Tissot ما سماه بمعبر رومانى وقد اعتاد هذا العالم تخيل وجود معابر رومانية حقيقية فى المغرب من الحجارة شبيهة بما فى الاقاليم الرومانية بأوربا غير أن هذا الوهم الذى وقع فيه تيسو عام 1874 اتضح فى أن بعض هذه المعابر عربية حديثة العهد وبعضها الآخر لا وجود له الا فى ذهن متخيله ولم يشر شاتلان فى كتابه مغرب الرومان « le Maroc des Romains» الصادر (عام 1944 ص 76-81) الى أية قنطرة على نهر سبو ولعل الأمر لا يعدو مجرد حجارات من أساس السور المحاذى لجرف الوادى نظرا لعدم توفر ما يشهد بوجود معبر فى مستوى الحاضرة الرومانية .

أما المساحة الواقعة على الضفة اليمنى للنهر فهى عبارة عن مستنقع رأس الداورة (مرجة) وشريط من الهضاب حيث تنعرج الطريق الساحلية نحو باناسا حسب رحلة انطونان itinéraire d'Antonin اغلب أن قيمة المدينة القديمة ترجع خاصة الى اهمية وادى سبو الذى وصفه بلين Pline فى كتابه التاريخ الطبيعى Histoire Naturelle (ج 5 ص 5) بانه نهر عظيم تمخر عبابه المراكب وليس هذا ببدع اليوم وان كانت الملاحة تقف عند رصيف القنيطرة لان سبو كان يعتبر طريقا نهريا عام 1922 (1) الى مشرع بلقصيرى وقد كان مجرى الوادى يعالج بآلات جارفة ولكنه كان مطروقا فى القديم بدون هذه الوسائل الحديثة والنصوص

× هذه الحبائل تسمى madrague وتستعمل فى صيد الطون وأصلها عربى ولعلها مر الدريكة أى الطريدة من طرد طردا زاول الصيد وان كان هذا اللفظ خاصا بصيد البر .

(1) Célérier فى بحثه المستنقعات فى سهل سبو - هسبريس ج 2 عام 1922 .

التاريخية شاهدة بذلك ففى عام 1614 صعد مجرى سبو سير سان ماندريق بمركب حمولته ثلاثمائة طن وقبله وصل تاجر فرنسى عام 1560 الى فاس عن طريق سبو لنقل السلع الى مرسيليا (2) وهذا يدل على أن المراكب التى تقطع المحيط كانت تصعد نهر سبو الى رافده وادى فاس وقد تحدث المؤرخ كاليديرون (3) عن بحر فاس عام 1628 كما أشار فيكتور هوكو (4) الى ذلك فى القرن التاسع عشر ومن المؤرخين المغاربة على الجزنائى الذى أكد فى زهرة الآس وجود دار لصناعة المراكب والسفن بفاس وقد صنع عبد المومن بن على فى القرن السادس الهجرى مائة وعشرين سفينة بفاس كما أكد مويت فى رحلته التى نشرت عام 1683 أن مينا. فاس كان يتقبل سفنا ذات حمولة ثلاثمائة طن .

ويتضح من هذه الادلة أن الرومان كان فى وسعهم الوصول الى المكان الذى بنيت فيه مدينة فاس الا أنه لا يوجد ما يؤكد تأسيسهم لمركز خاص بهذه الناحية (5) وكيفما كان الامر فان سبو كان يؤدى الى مقربة من وليلى مما يجعل لهذه المدينة الرومانية طابعا بريا أقل مما عليه الحال فى الواقع .

وقد أصدر ملك البرتغال عمانويل الاول فى 27 شتنبر 1514 تعليما الى رجاله بالقيام بجولة سرية فى مصب سبو (6) فأشار الى جزيرة سبو وقصر فرعون ويلوح من الوثائق البحرية البرتغالية أن جزيرة سبو التى سمتها جزيرة سانت مارى تقع على مرحلة من مصب النهر وهى الجزيرة الصغرى المسماة جزيرة سيدى يوسف قرب القنيطرة أما قصر فرعون فقد ظن البعض أنه وليلى بيد أن هذه المدينة الرومانية لا تحمل وحدها هذا الاسم فهنالك ساقية فرعون اى مدينة شالة وكدية فرعون بجنوب المغرب (7) ولذلك ارتأى بعض علماء الآثار أن المراد بقصر فرعون هو انقاض مدينة باناسا الواقعة على نفس الوادى قرب المصب بينما ارتأى آخرون أنها ثموسيدا التى كانت انقاضها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى بارزة اكثر قبل وقوع زلزال أشبونة الذى تأثرت به شكلية الشاطىء المغربى بين سلا والمهدية وقد سبق للمؤرخ تيسو Tissot أن أشار عام 1874 الى بقايا أثرية رومانية سماها الفراعنة (جمع فرعون) وما زالت تعرف بهذا الاسم وقد عثر على كتابات تشير الى باناسا عام 1871 كما عثر فى سيدى على بن احمد على أنقاض مدينة قديمة هى التى حقق انطونان (8) فى رحلته وضعها الجغرافى على نفس المساحة أى اثنين وثلاثين ميلا بين باناسا وشالة ونظرا لكون انقاض سيدى على بن أحمد واقعة على نفس البعد بين شالة وسيدى على بوجنون فان ضريح سيدى على بن احمد لا يمكن أن يكون الا فى ثموسيدا لا سيما وأن انقاضه هى الانقاض الوحيدة الموجودة أسفل حوض سبو .

ويغمر الماء أساس مدينة ثموسيدا فى انحدارها من الجنوب الى الشمال ولم يبق منها سوى سورها المتهدم فى الشمال والشرق ويقدر طول هذا السور بألف وخمسمائة او ستمائة متر وتتوازى الناحية الشمالية لهذا السور فى 360 متر مع طول النهر أما الجبهة الجنوبية فان طولها اربعمائة متر تشمل معسكر القلعة Castrum التى أشار تيسو الى أن ضريح سيدى على ابن أحمد واقع داخلها والتى شرع المنقبون فى الكشف عنها عام 1935 .

وقد صدر عام 1932 بحث حول ثموسيدا فى ريال انسيكولو بيدى Real-Encyclopedie استعرض النصوص اللاتينية فى الموضوع ومن جملتها نص لبطليموس يرى أن المدينة واقعة جنوبى شالة غير أنه يناقض نصا آخر لبطليموس أيضا يشير الى وجودها فى شمال شالة ويتأكد ذلك بوثيقة أخرى تعرف بكتاب

---

(2) جورج كولان فى بحثه «فاس ميناء بحرى» نشرة التعليم العمومى بالمغرب (عام 1945) .

(3) ريكار مجلد الاندلس عدد 26 م 2 عام 1961 .

(4) فى نشيد القراصنة ذهبنا من فاس الى قطان (مرسى بصقلية) على مركب ايطالى Nous allions de Fès à Catane sur la galère capitane

(5) وان كان Thouvenot يزعم أن المولى ادريس انما جدد بناء مدينة رومانية هى فاس نظرا للعثور على قنديل ونقود رومانية من البرونز هناك - راجع ثموسيدا وهو كتاب فى مجلدين نشرته المدرسة الفرنسية بروما (ج 2 ص 11)

(6) راجع النصوص الغميسة لدوكاستر ج 1 ص 638 عام 1934

(7) رولان ماريشال Roland - Mareschal فى بحثه حول تخوم موريطانيا الطنجية جنوبى شالة (ج 2 الفصل الثالث عشر ص 6 عام 1924) .

(8) رحلة انطونان Itinéraire d'Antonin رحلة جغرافية لا يعرف تاريخ صدورها وهى تعدد مراحل الامبراطورية الرومانية وابعادها وهى وان كانت حديثة فانها منسوبة للامبراطور انطونان لوبيو 86-161 م .

جغرافي رافنا بايطاليا Le géographe de Ravenne (9) الذي نشر عام 1688 ويرجع تصنيفه الى القرن السابع الميلادي وهنالك رحلة أخرى تسمى رحلة سيلاكس Périple de Scylax وهو جغرافي وبحار اغريقي من القرن السادس الميلادي كلفه شاه فارس داريوس الاول بجولة في نهر الهندوس فجال في البحر الى الخليج العربي الا أن الرحلة التي تحمل اسمه هي من تصنيف جغرافيين ينتمون لعصور مختلفة (وخاصة القرن الرابع) وقد أشارت هذه الرحلة الى نهر آخر هو Krabis يقع بعد نهر اللكوص وكذلك الى ميناء فينقي يسمى Thymiatéria الذي سبق أن نص على تأسيسها حانون في رحلته (450–475 ق. م.) وحدد موقعه بين أساطين هرقل واللكوص .

ويظهر من السور الخارجي لمدينة ثاموسيدا الواقعة على بعد أحد عشر كلم من القنيطرة أن مساحتها تقدر بنحو خمسة وعشرين هكتارا وما زالت الارصفة ماثلة للعيان مع بقايا بناية مستديرة على ضفة الوادي يظن أنها مجموعة الحمامات التي بدأ التنقيب فيها عام 1932 وقد اسفرت الحفريات لحد الآن عن شارع طويل يدل اتجاهه وموقعه على أنه هو الشارع الاساسي Decumanus Maximus وتمتد بقاياه اربعين مترا في عرض يبلغ خمسة أمتار غير أن المجموعة الهامة في هذه الانقاض هي بناية كبرى كائنة شرقي المدينة تضم سلسلتين من الغرف بجانبي صحن دار atrium وقاعة وسطى على غرف الالواح Tablinum في الدور الرومانية وهي أشبه بغرفة أساسية في قصر قائد الجيش وهذا هو الذي حدا الى اعتبار هذه البناية بمثابة معسكر .

اما الساحة العمومية forum فيظهر أنها بجوار الحمامات وضريح سيدي علي وبعد التنقيبات التي بوشرت بين 1959 و 1962 برزت الابواب الاربعة والابراج الاربعة عشر للسور مع تخطيط واضح لهذا السور وبقايا فرن للحديد أما الفسيفساء فانها منعدمة وخاصة في المستحمات بينما تتوافر قطع النقود خاصة في العصر الجمهوري مع ثلاثة مستودعات نقدية راجعة للقرن الثالث الميلادي أضف الى ذلك أنواعا قديمة من الخزف وصورة أسد مقرفص منحوت على الحجارة ومجموعة من تماثيل البرونز .

* * *

هذا وان البحث عن تاريخ تأسيس بعض المدن الازلية في المغرب برهن على أن ليكسوس وطنجي لاتوغلان وحدهما في القدم فهنالك مدن رومانية اسفرت حفرياتها عن معالم احتلال سابق لكل نفوذ سياسي روماني ففي باناسا بلغت التنقيبات أحد عشر مترا عمقا وكشفت عن ستة مستويات تعبر عن مراحل متتابعة في الاحتلال أقدمها يرجع على الاقل الى القرن الثالث قبل الميلاد كما اتضح ان شالة ووليلي تم تعميرهما بل تمدينهما قبل العصر الروماني ودلت الحفريات عام 1960 جنوبي الحمامات بثاموسيدا على أن المدينة يرجع تاريخ تعميرها هي وكل من باناسا وشالة الى ما قبل الاحتلال الروماني لموريطانيا وان سكانها تعاملوا مع العالم الروماني منذ القرن الاول قبل الميلاد .

أما التنقيبات التي أجريت في أحد أحياء ثموسيدا منذ 1961 فقد ادى آخرها الى الكشف عن عشر غرف بأساطينها وتيجانها ومستودع لاوعية الخزف ومطحنة للقمح ونحو مائة قطعة من النقود مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الناحية تجارية يرجع تأسيسها الى أوائل القرن الثاني الميلادي .

وهنالك ايضا خمسة مستويات تراوح التنقيب فيها بين متر واحد عمقا وازيد من أربعة امتار يرجع سطحها الاول الى القرنين الثاني والثالث وسطحها الثاني الى القرن الاول اي عقود من السنين قبيل وبعيد احتلال روما لموريطانيا أما السطح الثالث فانه من بناء آخر القرن الاول قبل الميلاد حيث عثر على نقود من العهد الجمهوري وعهد ملوك موريطانيا والحواضر البونيقية وقناديل عهد الامبراطورين قيصر واوجست . أما السطح الرابع (وهو ما بين ثلاثة واربعة امتار و 30 سنتمتر تحت الارض) فان أواني الفخار والنقود منعدمة فيه ويرتفع تاريخه الى نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الاول قبل الميلاد وهكذا تأكد أن الاحتلال الروماني كان مسبوقا بتجمع انساني وبنايات بدائية في ثموسيدا وقد عثر على لائحة أسماء فخارين غوليين وعلى صفيحة من البرونز هي الوحيدة بين احدى وخمسين عثر عليها في الاقاليم اليونانية Aquae Helveticae فهل يدل ذلك على تسرب فوج عسكري الى ثموسيدا من ريتيا Rhétie اي سويسرا الرومانية ؟ ان كتابات اخرى وقع الكشف عنها في المدينة تشهد بذلك .

أما النقود فان مجموعها مائة وثلاث قطع منها أربع وخمسون وجدت خلال التنقيب الثالث وقد سبك

---

(9) وهما وثيقتان اصحهما الثانية لان الاولى مملوءة بالمناقضات حيث تشير الى وجود تماسيدا بدل ثموسيدا وتجعلها بين شالة وسبتة .

بعضها في مالاقا وطنجة وليكسوس وشالة في عهد بوكود الاول ويوبا الثاني ونيرون وسبتيم سيفير كما عثر على قطعة مسكوكة في العهد الاسلامي وفي خصوص الخزف عثر على نوع يسمى بفخار باناسا رقيق فيه خطوط متوازية مصبوغة بعدة الوان تتصل أحيانا بمثل فقر الاسماك وهي شبيهة بالاخزاف الايبيرية ibérique

غير ان صبغتها الموريطانية تأكدت بوجود أفران خزفية في أعماق أرض باناسا كما عثر على نظائر من هذا الخزف الملون بوليلي وهو شاهد أساسي – كما يقول موريس اوزينا – (10) بوجود حضارة موريطانية قبل العهد الروماني لا سيما وان خزف باناسا لا يوجد الا في السطح الرابع الذي سبق تاريخه كل نفوذ روماني .

وهنالك نوع آخر من الفخار له دهن أسود لامع وجدت منه 700 قطعة في السطح الثالث وهو نوع ايتروسكي etrusque (11) ولعل اسبانيا كانت صلة الوصل لاستيراد هذا الخزف الايطالي الى موريطانيا حيث تفتحت لهذا التأثير منذ القرن الاول قبل الميلاد بل كانت تصنع نماذج شبيهة ببعض الانواع الرومانية الموجودة في ثموسيدا أما القناديل المصنوعة من الطين النضيج فان بعضها يرجع الى ما قبل الميلاد . وهنالك أنواع من المعادن مثل صحون البرونز الذي رسمت عليه يد مفتوحة من جهة ويد مضمومة الاصابع من جهة أخرى ومعلوم أن اليد المفتوحة تستعمل عادة كحرز(12)وكانت الحروز وخاصة منها اليدوية منتشرة عند الشعب في العصر البونيقي اكثر من الرموز الاخرى وقد لوحظت هذه الظاهرة منذ القرن الخامس واستمرت على ما يلوح الى القرن الاول قبل الميلاد (13) وقد عثر كذلك على ابازيم مناطق مفضضة ومفاتيح وعرى اكواب وصنانير كل ذلكمن البرونز ثم29مقذافا مقلاعيامن الرصاصوكعاب من العظم مرقمة للكعب وبقية قنينة من الزجاج الازرق الكثيف الشفاف وآنية زجاجية صفراء نصف شفافة برسوم بارزة يمثل بعضها بناية ذات أربع نوافذ ويقال بأن هذه الاوعية صنعت في نورمانديا وبريطانيا أواخر القرن الاول وخاصة أوائل القرن الثاني الميلادي وقد عثر على مثيلاتها في شمال فرنسا والمانيا وسويسرا وكذلك اسبانيا ووجود هذه القطعة الزجاجية في تموسيدا من الغرائب لا سيما اذا اعتبرنا بعد المسافة وقابلية الزجاج للكسر .

ومن جملة البنايات التي برزت معالمها بعد الكشف المعبد الذي ربما خصص لآلهة افريقية من مصدر بونيقي غير أن هذه المعابد تكون في الغالب بعيدة عن أمكنة السكنى كما هو الحال بالنسبة لمعبد زحل Saturne في دوكا ومعبد العين في تمكاد ولكن معبد تموسيدا أصبح قائما داخل المدينة التي اتسعت جوانبها في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي الذي هو عصر الازدهار الاقتصادي للمدينة على اثر قيام موريطانيا الطنجية أما القلعة فان طولها يبلغ 165،85 متر وعرضها 138،78 مترا اى مساحة تعادل هكتارين اثنين وربع هكتار وهي أعظم معسكر في موريطانيا الطنجية حيث ان المعسكرات الاخرى بشالة وسوق الاربعاء وتموسودا وفريجيدا لا تتجاوز مساحتها الهكتار الواحد فأقل عدا معسكر طوكو لوسيدا قرب وليلي الذي يبلغ طول أضلاعه مائة وستين مترا (14) وقد بنيت القلعة بأبراجها دفعة واحدة وعثر فيها على فرن للحديد وطبقات من الرماد مما قد يحمل على الظن بوجود منطقة صناعية في هذه الجهة ويظهر أن القلعة كان لها تصميم معماري مستقل عن باقي المدينة وقد كشفت التنقيبات عن مرقاة من تسع عشرة درجة في كل من الشرق والجنوب بالقرب من أبواب القلعة أما الابراج فعددها اثنان وعشرون والابواب أربعة موزعة على الجنوب والشمال والشرق والغرب ويظهر من بعض الكشوف الحفرية أن ثلاثة أبواب سدت بعد نزوح الرومان عن القلعة واحتلال عناصر جديدة لها فلم يبق سوى ممر ضيق من الباب الشرقية .

وهكذا تتجلى الاهمية البالغة التي اتسمت بها هذه المدينة القديمة التي يظهر من النصوص والحفريات أنها أسست قبل دخول الرومان الى المغرب .

عبد العزيز بنعبد الله

---

(10) تموسيدا ج 1 ص 78

(11) Etrusques هم آريون من آسيا الصغرى لهم ثقافة أعلى من ثقافة الايطاليين تجمعوا منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد في اتحاد اثنتي عشرة جمهورية بسطت نفوذها على ايطاليا من القرن العاشر الى السابع قبل الميلاد وقد تأثر الرومان بحضارتهم الماثلة الى الآن في الفن

(12) نواقيس الشرف Horns of honour بقلم Elworthy لندن عام 1900 ص 160

(13) بحيث لم تكن هنالك كما يقول Cintas في كتابه الحروز البونيقية Amulettes puniques (تونس 1946 ص 143) لا آلهة ولا حيوانات مقدسة وانما أيد واعضاء تناسلية الخ .

(14) حسب Châtelain صاحب مغرب الرومان ص 133 او 135 مترا حسب تنقيبات مصلحة الآثار القديمة .

خريطة انطونان

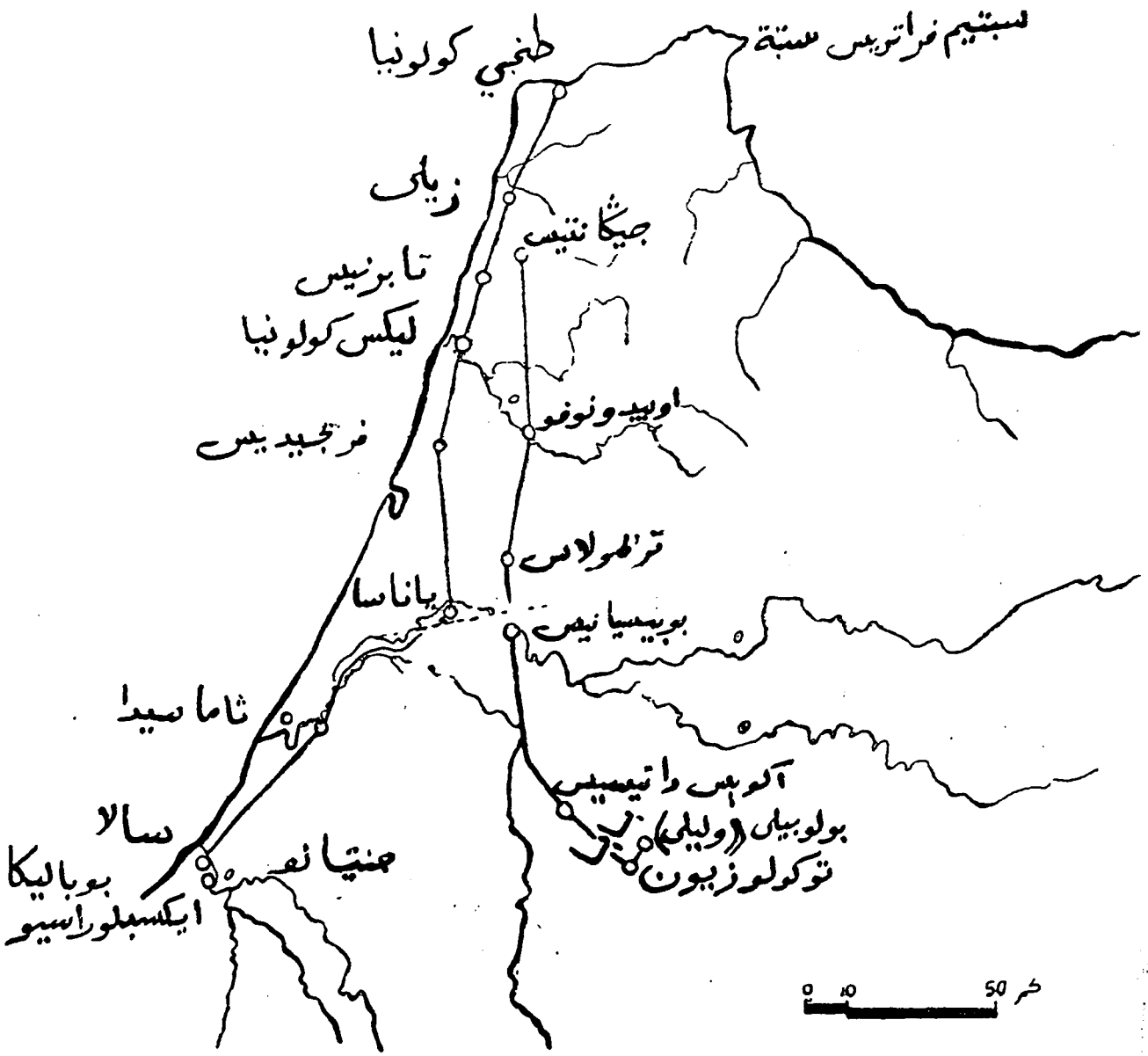
طنجي كولونيا
زيلي
جيكانتيس
تابزنيس
ليكس كولونيا
اوبيدونوفو
فرجيديس
ترلمولاس
بانا ساسا
بوبيسيانيس
ثاماسيدا
آكوباس واتيميس
بولوبيان (وليلي)
توكولوزيون
سالا
بوباليكا
ايكسبلوراسيو
كم 50 25 0

نہر سبو
0
50
100
150
200
250
300
م

تمويد ١

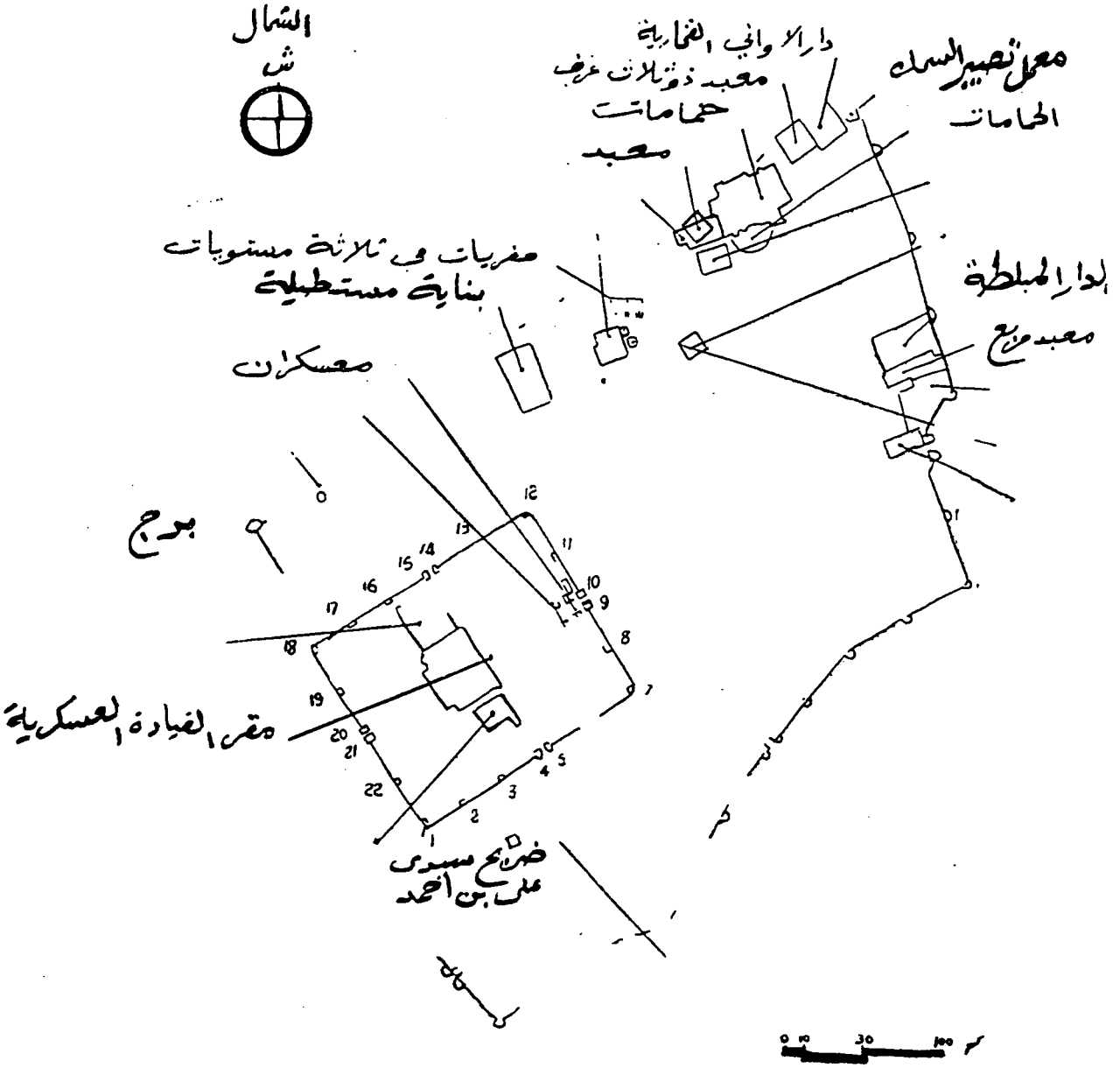
الشمال
ش
دار الأوانى الفخارية
معبد ذو ثلاث غرف
حمامات
معبد
معمل تصوير السلك
الحمامات
مقبريات فى ثلاثة مستويات
بناية مستطيلة
دار البلاطة
معبد مربع
معسكرات
برج
مقر القيادة العسكرية
ضريح سيدى
على بن أحمد
0
30
100
م